

كتب بالإنكليزية

المواطنون الفلسطينيون
في دولة إثنية يهودية:
هويات في صراع*

Palestinian Citizens in an Ethnic Jewish State: Identities in Conflict

Nadim N. Rouhana

New Haven: Yale University Press,
1997. 300 pages. \$35.00 cloth.

إن كان هناك من يجد صعوبة في فهم الأسباب التي أدت إلى مقتل 13 مواطناً فلسطينياً [من عرب 48] على أيدي قوات الأمن الإسرائيلية في تشرين الأول/أكتوبر 2000، فإن هذا الكتاب يقدم أجوبة مباشرة وقوية تستند إلى أبحاث معمقة. وكما يشير المؤلف في مستهل كتابه، فإن "الصراع يكون محتوماً في الدولة متعددة الإثنيات، ما لم تبرز المواطنة كهوية مشتركة ذات معنى متماثل لكل المجموعات الإثنية الوطنية. لكن بروز المواطنة كمصدر للتعلق العاطفي يتوقف، إلى حد كبير، على مكانة الإثنيات في تركيبة القوى في الدولة" (ص 6). وهكذا في كل وقت تخفق الهوية الجماعية في الحلول محل الهوية الإثنية الوطنية، يمكن أن ينشأ الصراع، كما توضح حالات قبرص وإيرلندا الشمالية وسريلانكا. ويستخدم روحانا العوامل الاجتماعية والثقافية والسياسية والقانونية الرسمية لتحليل المكونات المعقدة للهوية الجماعية (الولاء، والتعلق العاطفي، والتجربة التاريخية المشتركة، والاعتداد بالنفس، والإحساس بالمصير المشترك، والانتماء). غير أن الهوية تتأثر، بصورة جماعية، بهياكل الدولة والتطورات الإقليمية والدولية.

بالنسبة إلى الفلسطينيين الذين يعيشون في إسرائيل، يرى روحانا أن هؤلاء يعيشون في "دولة إثنية حصرية (exclusive) بموجب الدستور" (ص 31). وأن الترتيبات البنوية والقانونية التي تسمح بهذا الإقصاء [للعرب عن مواقع النفوذ

(* المصدر: *Journal of Palestine Studies*, vol. xxxi, no. 2 (Winter 2002), pp. 90-91.

والقرار]، فضلاً عن ديناميات السياسات الإثنية التي يحددها روحانا بصورة شاملة، لا تدع مجالاً للشك في أن الدولة استغلت مخاوفها الأمنية بمكر ودهاء وقنعتها من أجل السيطرة على المواطنين العرب. غير أن معالجة المؤلف لتجليات الديمقراطية – وهي [التجليات] عامل مركزي شكّل في دعاية الحكومة وأثر في الباحثين الإسرائيليين الذين درسوا المواطنين العرب – ليست كافية. وكان يمكن للقارئ أن يستفيد كثيراً من معالجة نقدية أكثر توسعاً لهذه المسألة. ولا تقدم الفصول التي تبحث في السيطرة على الحركات الداخلية والتطورات الإقليمية أي معلومات جديدة، على الرغم من أن روحانا يربط بمهارة بين العوامل المتعددة في كل جانب وبين تشكّل الهوية الجماعية العربية في إسرائيل.

لقد كتب المؤلف عدة مقالات عن وضع المواطنين العرب في إسرائيل وهويتهم. واستناداً إلى تلك الأبحاث الموسعة، جاء كتابه الأول شاملاً، حسن التنظيم، ويتعامل مع الوضع الماضي للفلسطينيين داخل إسرائيل وحاضرهم ومستقبلهم. وفي الحقيقة، فإن روحانا يلقي أضواء مهمة على المعنى المعقد للهوية الجماعية بين الفلسطينيين في إسرائيل. وفي هذا السياق، يقدم الكتاب نقداً قوياً ومهماً جداً لباحثين إسرائيليين بارزين، من أمثال سامي سموحا، الذي يقوم باستطلاعات منتظمة لآراء العرب في إسرائيل، ويرى أن قسماً منهم استتبطن الهوية الإسرائيلية (مقاربة قائمة على فرضية التأقلم)، وقسماً أصبح أكثر تعلقاً بفلسطينيته (مقاربة قائمة على فرضية التوجه نحو التطرف). وعلى سبيل المثال، يشرح روحانا، من خلال مقابلاته النوعية والمعمقة مع زعماء وناشطين عاديين، الفارق بين "فلسطينيين إسرائيليين" و"فلسطينيين في إسرائيل". كما يوضح، خلافاً لما يستخلصه باحثون آخرون من ذلك، أن معنى استخدام تعبير "عربي" في إسرائيل ووظيفته يشيران إلى أن المظاهر الإسرائيلية للهوية وظيفية بالدرجة الأولى، وتفتقر إلى التعلق العاطفي.

ومن خلال استخدام نموذج "الهوية المؤكدة" (accentuated identity model)، يلتقط روحانا سمة تطور الهوية الجماعية بين العرب والإسرائيليين ومعناها: "إن تأكيد (لكن ليس أصل) الهوية الفلسطينية هو رد جزئي على رفض الدولة لإمكان أن [يساهم] مواطنوها العرب [في تطوير] هوية إسرائيلية متكاملة – إلا بما لا يتعدى تشويهاً نفسانياً للشعور بأنهم ينتمون إلى دولة تحدد أنها تنتمي إلى آخرين لا إليهم" (ص 147). ونتيجة ذلك، لا يشترك العرب في إسرائيل في أي تجربة وطنية جماعية مع المواطنين الإسرائيليين. بل ليس هناك أي متحف وطني، أو عطلة وطنية، أو رمز وطني، مشترك بين العرب واليهود (ص 148).

والمؤلف يذكر صراحة، في خلاصته، أن "هوية العرب في إسرائيل غير مكتملة على نحو مضاعف" (ص 217). فمن جهة، لا هويتهم الفلسطينية كاملة ولا هويتهم الإسرائيلية، وذلك بسبب غياب البنى الاجتماعية والثقافية والسياسية والقانونية الشكلية، وافتقارهم إلى التعلق العاطفي بإسرائيل. ومن جهة أخرى، تشير النتائج التي يخلص إليها روحانا إلى وجود اختلافات في القيم الاجتماعية بين العرب في إسرائيل والفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة، على الرغم من حاجة هذه الاختلافات إلى مزيد من الدراسة، وفق ما يرى المؤلف. ولهذه الاختلافات نتائج مهمة على صعيد الهوية الجماعية والشعارات التي يستعملها أهل الداخل والخارج، وتحول هذه الاختلافات دون اندماج العرب في إسرائيل بصورة تامة في هويتهم الفلسطينية.

بعد رفض الخيارات الحصرية، يركّز المؤلف في بحثه على المساواة في المواطنة و[ضرورة] تطوير دولة ديمقراطية تقوم على الحقوق المدنية. ويقترح التفاوض بشأن مواطنة مشتركة كهوية عليا يمكن أن تربط المجموعتين الإثنتين إحداهما بالأخرى، وتسمح لكل منهما بالشعور بهويتها الإثنية الوطنية. غير أن عليّ، كممارس لحل الصراعات، الإشارة إلى خيبة أمني بسبب قلّة ما يقدمه روحانا من إرشاد عملي بشأن الطرق التي يمكن أن تتبعها القلة العربية واليهودية التي تؤمن بهذا الخيار لترويجه.

في النهاية، يمكن القول إنه ما من باحث آخر تطرق إلى العلاقات العربية - اليهودية في إسرائيل بهذا التفصيل من خلال مثل هذا الإطار النفسي الاجتماعي. وكتاب روحانا ريادي من هذه الناحية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذا الكتاب، في سياق الدراسات التي تتناول الفلسطينيين في إسرائيل، هو بالتأكيد من الكتب القليلة التي وضعها باحثون فلسطينيون أو إسرائيليون، والتي تقرّ بالتناقض البنيوي المتأصل بين طبيعة الدولة اليهودية وبين الطموحات والحقوق الجماعية لمواطنيها العرب. ويشكل البحث والتحليل في هذا الكتاب تطوراً مهماً في دراسة العلاقات العربية - اليهودية في إسرائيل، وهي مساهمة لم يقدم عليها إلا نفر قليل من الباحثين مثل

Ian Lustick (*Arabs in the Jewish State: Israeli Control of a National Minority* [University of Texas Press, 1980]); Sami Mari' (*Arab Education in Israel* [Syracuse University Press, 1978]); Elia Zureik (*The Palestinians in Israel* [Routledge, 1978]).

محمد أبو نمر

محاضر في السلام الدولي
وحل الصراعات،
كلية الخدمات الدولية في
الجامعة الأميركية في واشنطن

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>